خروشوف الذي لا ينسى أحقاده!

كان خروشوف يكره زكريا محي الدين، فقد كان يشغل منصب وزير الداخلية، وكان المسئول عن مطاردة الشيوعين المصريين، والقبض عليهم ورصد تحركاتهم كما كان يتهمه بأنـه " أمريكاني" !

(٣) خروشوف الذي لا ينسى أحقاده!

لم تهمل مصر زيارة خروشوف، بل على العكس من ذلك كان الاهتمام بتلك الزيـارة يفـوق الوصف، وكان البرنامج الذي أعد لتلك الزيارة حافلا ومثيرا، لم يكن خروشـوف يتوقعـه أو ينتظره.

وعدنا إلى القاهرة بعد انتهاء احتفالات السد العالي في أسوان وكان في انتظار خروشوف في العاصمة المصرية الكثير من المفاجأت التي أسعدته وشجعته على أن يكون مندفعا إلى درجة غير مقبولة من أحد !

فمثلا وجهنا إليه الدعوة لحضور إحدى جلسات مجلس الأمة . وقتها كنت رئيسـا للمجلـس، وجلس خروشوف على يميني، وجلس عبد الناصر على شمالي. وقام عبد الناصر ونزل مـن المنصة ووقف أمام المنبر وألقى كلمة ترحيب بخروشوف، ثم ترك مكانه للضيف السـوفيتي ليوجه كلمة لأعضاء مجلس الأمة الذين أحسنوا استقباله، وصفقوا له طـويلا. وبعـد انتهـاء الجلسة دخلنا جميعا إلى الغرفة الملحقة والمخصصة لرئيس الجمهورية وكان الجـو النفسـي مشجعا للتخلص من الرسميات ومواصلة الحديث كأصدقاء وحاولت أن أبدأ من جانبي لكسـر ألفاظه البذيئة التي أمطرنا بها خلال الأيام القليلة التي أمضاها معنا في أسوان.

وجهت حديثي لخروشوف، وكان معه جريتشكو- وزير الدفاع السوفيتي، وقلت له ضاحكا:

- " لقد قررت أن أقبض على جريتشكو، والإبقاء عليه رهينة هنا في مصر، ولن أفـرج عنه إلا إذا وافقتم على تزويدنا بما طلبناه من أسلحتكم!".

وضحكت. وضحك جميع من كان معنا في الصالون، الوحيد الذي لم يضحك كان خروشـوف لم يفهم الفكاهة! أو لعله فهمها، ولكنه لم يقبلها!

وفوجئت بوجهه يصفر، ورسم فوقه ابتسامة باهتة، وتوقعت أن ينهال علي بقذائفـه اللغويـة الخارجة، من نفس القاموس الذي استخرج منه الشتائم التي أهان بها عبد السلام عارف! وكان

من المؤكد أن خروشوف كان يتمنى أن يرد على تعبيري ولكنه خنق رغبتـه .. فلـم يـرد واحتقن وجهه وتجسمت فيه كل ملامح الرجل الحاقد الذي لا يقيم أي وزن لأي إنسان !

ولحسن الحظ أن جريتشكو كان يضحك، سعيدا بالتعبير الذي استخدمته وجريتشكو كان يقبـل على المرح ويحب الهزار" وكثيرا ما دار بيني وبينه الحديث الضاحك المرح كما يحدث دائما مع الأصدقاء وهذا هو شأن معظم الشعب المصري في حبه للنكتة، وولع بالفكاهة، خروشوف هو وحده الذي كان يضحك فقط لما يقوله هو، حتى ولو أغضب الجميع بكلماته وشتائمه!.

النظرة الحاقدة فوق الوجه الأصفر غلا وضيقا جعلتني أقرر الابتعاد تماما عن خروشوف. فلا الرجل يريد أن يفتح قلبه لي، ولا أنا اسعى إلى كسب صـداقته! لقـد صـدمنا جميعـا فـي خروشوف عندما رأيناه ينسى نفسه، وينهال بالشتائم على الرئيس العراقي عبد السلام عارف، بلا مناسبة، ولم يكن عارف ضحيته الوحيدة. فقد حدث أن ذهب خروشوف إلى حفل اسـتقبال أقيم في أحد فنادق القاهرة. وبالطبع وقف خروشوف وألقـى خطبـة وبـلا مناسـبة فـوجئ الحاضرون بالضيف السوفيتي يتطاول على دولة الكويت، ويسخر من سياستها ويهين حكامها!

وكان جروميكو- وزير الخارجية السوفيتية- حاضرا فحاول بكل ما في وسـعه –بإشـارات يديه- أن ينبه خروشوف إلى الخطأ الذي وقع فيه بشتم الكويت.

ولكن خروشوف لم يتوقف. ولم يفهم إشارات جروميكو. أو لعله فهمها. ولكنه لم يوافقه عليها وتصادف أنني لم أحضر هذا الحفل. ولم أستمع إلى خروشوف وهو يهاجم الكويت. ولكننـي علمت بتفاصيل الخطاب من بعض الحاضرين فاستغربت من سلوك خروشوف ولم أجد مبررا واحدا يشفع له على هجومه على الكويت وحكامها. فالمعروف أن الكويت لم تتخذ موقفا معاديا للاتحاد السوفيتي ولم تهاجمه صحافتها، وأجهزة أعلامها. وبالتالي فما الـداعي إلـى هـذا التهجم العنيف..ُ!

ووصل الخبر إلى الكويت...

وعلى الفور أمسك الشيخ جابر – حاكم الكويت الآن وكان وقتها وليا للعهد – بقلمه وكتب لي خطابا يسألني فيه عن حقيقة ما قاله خروشوف عن بلاده.

وبادرت بالرد على رسالة الشيخ جابر. فالرجل كان من أقرب أصدقائي العرب. وكنا نتبـادل الرسائل، وكثيرا ما نلتقي في مناسبات عديدة.

قلت للشيخ جابر حقيقة ما حدث بالضبط. وطبقا لما سمعته، وتحققت منه. وقلت له نص مـا قاله جروميكو لخروشوف أمامنا بعد الحفل الذي لم أحضره فقد سأل جروميكو خروشوف عن السبب في عدم التوقف عن مهاجمة الكويت، على الرغم من إشارات يديـه التـي لاحظهـا،

وفهمها، الجميع فرد خروشوف قائلا:" لم ألحظ إشارتك ولم أفهم ماذا كنت تريد أن تقول لـي بها" .

كل هذا كتبته للشيخ جابر.....

أتذكر هذا الآن، واتذكر أيضا موقف الأصدقاء العرب معنا في هذه الأيـام فأشـعر بـالألم، والأسف العميقين. أنهم يهاجمون مصر الآن. وحدث بعد مؤتمر بغداد الأخير أن جاء أحـد الصحفيين العرب لمقابلتي وسألني عن رأيي في قرارات مؤتمر الرفض فقلت له :

-" والله أني أشعر بالحزن فقط لموقف اثنين من قادة العرب هما الشيخ جابر والأمير فهد. فقد كنت اعتبرهما من أعز أصدقائي. وكنت أتوقع لهما نجاحا فور توليهما المناصب العليـا فـي بلديهما والغريب أن أول عمل قاما به فور توليهما السلطة في الكويت والسعودية، هو إهانـة مصر ومحاولة عزلها"!

ونعود إلى الموضوع الأصلي الخاص بخروشوف.....

فعلى الرغم من كل ما قيل، وما يمكن أن يقال عن خروشوف فإن هنـاك حقيقـة يجـب أن نعترف بها وهي :

أن الرجل حاول أن يحول نظام انتقال السلطة في الاتحاد السوفيتي إلى نظام ناضج بدلا مـن النظام الغريب الذي تميزت به بلاده، وانفردت به:

فعندما وقف خرشوف، وفند أسلوب ستالين في الحكم، لم يكن هدفه فقط هو كشف أخطاء هذا الأسلوب، وإنما حاول أن يغير هذا الأسلوب بحيث لا يتكرر مرة أخـرى، ويعـاني الشـعب السوفيتي ما عاناه، ويعانيه، من أهوال وامتهان لحريته.

واتذكر أنه جمعتنا جلسة مغلقة خروشوف وعبد الناصر وعبد الحكـيم عـامر، وأنـا وأخـذ خرشوف يحدثنا كيف كان ستالين يحرص على أن يجمع اعوانه- كل ليلة – في بيته ويسقيهم شراب الفوركا، حتى يفقدهم وعيهم، ثم يأمرهم بالرقص أمامه إلى ما بعد منتصف الليل... ثم ينهي السهرة ليعيدها في مساء اليوم التالي .... وهكذا....

الشيء الوحيد الذي كان يتغير في تلك السهرات هو وجوه الحاضرين ففي كـل ليلـة كـان الحاضرون يفاجئون باختفاء واحد٠ أو اثنين منهم! وكان ستالين يحضر غيرهما من أعـوان الصف الثاني الذين قرر أن يقفز بهم إلى الصف الأول. ولم يكن يجرؤ أحد الحاضرين – كما قال لنا خروشوف- أن يسأل عن سبب اختفاء زملاء سهرة الأمس ! فسبب الاختفاء معروف، وهو غضب ستالين على المختفين أما سبب الغضب فلا يعرفه أحد!

ويصف خروشوف هذه الأيام ، فيقول لنا

- " كنت أودع زوجتي في مساء كل ليلة، وقبل مغادرتي منزلي في طريقي إلى سـهرة الفودكا، والرقص في منزل ستالين كنت أودعها كما لو كنت في طريقي إلى الإعدام ! وما كنت أفعله كان غيري يفعله هو أيضا في بيته ! فلم نكن نعرف من هو الذي سيأتي عليـه الدور ليغضب عليها ستالين، ويأمر بالقبض عليه، وإرساله إلى معسـكرات العمـل فـي سيبريا!

والمعروف أن بيريا كان هو الذي ينفذ قرارات ستالين الإرهابية فهو المسئول عـن أجهـزة الأمن، وهو الذي في استطاعته القبض على أي مواطن وتعذيبه، وإبعاده تحت جليد سيبريا!

الوحيد الذي استطاع أن يبقى بجانب ستالين فترة أطول من غيره، ولم ينف إلى سيبيريا كـان كوسجين ! وكثيرا ما كان خروشوف" يتريق" على كوسجين فيتعمد أن يسأله أمام الحاضرين –بما فيهم من ضيوف أجانب –عن السر وراء عدم غضب ستالين عليه رغم الـ ١٣ سـنة التي امضاها بجانبه! وكان خروشوف يعلق على ذلك بقوله:

-" كيف بقى كوسيجين ١٣ سنة بجانب ستالين، في حين أن غيره لم يسـتطع أن يبقـى ١٣ شهرا فقط!". ومن المؤكد أن إصرار خروشوف على التريقة على كوسجين بهذه الحكاية، كان من أهم أسباب غضب كوسيجين على خروشوف وموافقته على التخطيط لإبعاده عن الحكـم، فيما بعد.

ولم يكن كوسيجين وحده هدف قفشات خروشوفو وتريقته ، والسخرية منه. فقد تعرض زميله ميكويان، لتشنيعات قاسية اطلقها خروشوف عليه وكان يسعده أن يرددها باستمرار وقد حكـى لنا خروشوف هذه التشنيعة بنفسه، فقال أن ميكويان يذكره دائما بقصة سيدنا يوسف وزليخـة، عندما همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه.... ويتندر خروشوف على ميكويان فيقـول أن ميكويان واجه نفس الموقف الذي واجهه سيدنا يوسف. وإذا كان يوسف قـد رأى برهـان ربه فأعاده إلى رشده، فإن " شيخوخة" ميكويان هي وحدها التي اجبرته على التراجع!

وهكذا كان خروشوف . سليط اللسان ولا يسلم منه دين أو عقيدة أو قيم!

ولكنه- والحق يقال- حاول أن يضع نظاما يتيح انتقال السلطة في بلاده بأسلوب حضـاري، مثلما يحدث في المجتمعات الناضجة، بحيث لا يقفز على السـلطة إلا مـن يختـاره النظـام الدستوري وبحيث أيضا لا ينتزعها القوى ، والمتآمر على غيره كما حدث ويحدث في الاتحاد السوفيتي المعروف لنا منذ بدايته، وإلى اليوم، يأخذ بمنطق شريعة الغـاب ! فـالقوي يلـتهم

الضعيف.ورئيس الحكومة يختار أعوانه، فيطيعونه إلى أن يتمكنوا منه ثم يطيحون به ويتولـة الحكم خلفا له، الأقوى، والأكثر تآمرا وتحركا.

وانتقال السلطة في الاتحاد السوفيتي يتم عادة بنفس الأسلوب الذي لا يتغير. فهو يعتمـد أولا على السيطرة على الحزب، ومحاصرة القيادة التي قرروا التخلص منهـا والطريـق الوحيـد لتحقيق هذا هو إثارة الرأي العام على النظام الحاكم، بواسطة مراكز التهييج المنتشرة في كل مكان في الاتحاد السوفيتي.

وتنطلق تلك المراكز لتنشر بين الناس وتثيرهم ضد قادتهم، توطئة للإطاحة بهم بسهولة بعـد ذلك.

ومراكز التهييج تلك تضم كفاءات وخبرات، وأساتذة في هذا الفن. ومعظم الذين لمعـوا فـي أعلى مناصب الدولة، كان نشاطهم في مراكز التهييج " الواسطة" التي أوصلتهم إلى مناصبهم المرموقة.

فمثلا السفير فينوجرادوف – الذي مات هنا في القاهرة- كان مـن ألمـع سـفراء الاتحـاد السوفيتي. وشغل منصب سفير بلاده في باريس لمدة ١٢ سنة متصلة وكان صديقا ومقربا من الجنرال الراحل ديجول. وعندما جاء ليعمل في القاهرة تصادقنا بسرعة، وكان يجمعنـا خـط تليفون مشترك بيني وبينه طوال السنوات التي عمل فيها بيننا. وبشهادة الجميع كان هذا الرجل من أفضل وأحسن الدبلوماسيين السوفييت. واعترف لي بنفسه بأنه كان من قادة مراكز التهييج الشعبي في الاتحاد السوفيتي. وقد آمنت بكفاءته في هذا المجال عندما شاهدته يخطب ذات يوم في مؤتمر شعبي بالقاهرة حقيقة أن هذا الرجل كان يتحدث باللغة الروسية ولكن حركات يديه ونبرات صوته وانفعالات وجهه أجبرت المستمعين على التجاوب معه، على الرغم من وجود المترجم الذي كان يترجم خطابه إلى اللغة العربية.

وهذا يؤكد أهمية مراكز التهييج، ومدى تأثير قادتها، وخبرتهم الطويلة من إثارة وتهييج الرأي العام، توطئة لتحقيق الأهداف في القضاء على الحكام ونقل السلطة للأقوى! وأراد خروشوف أن يغير هذا كله، ومنذ اليوم الأول الذي وقف فيه يفند ستالين، ويهاجم أسلوبه الديكتاتوري في الحكم. أراد خروشوف أن يضع نهاية لعبادة الفرد، ولكنه فشل.

والطريف أن خروشوف بدلا من أن ينهي عبادة الفرد، وقع هو نفسه في هذا الوهم، وتصـور أنه أصبح إلها، رغم أنه لا يؤمن بالآلهة ولا بالأديان!

وعندما يتصور الحاكم – أي حاكم – أنه أصبح آلها، فهذا يعني نهاية كل شيء فالديكتاتوريـة تكشف عن أنيابها، والإرهاب يكتم الأنفاس، والسجون والمعتقلات تفتح أبوابها لاستقبال كـل من ينطق بحرف واحد منه أنه لا يتجاوب مع النظام!

والمضحك أن خرشوف لم يخف هذه الحقيقة بل على العكس من ذلك كان يحدثنا عما يجـري في بلاده بلا حرج، وبلا حساسية. فقد قص علينا كيف تمكنوا من القضاء على زميلهم بيريا، خوفا من قوته، ومن الأسرار التي يكتمها فالمعروف أن النظـام الرقـابي فـي المجتمعـات الشيوعية، يعتمد أساسا على ما يسمى بالكنترول. فماذا تعني هذه الكلمة ؟!

معناها أن أجهزة الأمن والمخابرات تفرض نفسها على المواطن عن طريق تصيد خطأ وقـع فيه، أو دفعته تلك الأجهزة للوقوع فيه، فلا يستطيع أن يفلت من قبضتها، ويصبح ذليلا لهـا. وكثيرا ما يسجل هذا الخطأ بالصورة والصوت معا كدليل لا يمن إنكاره، فيضطر المـواطن إلى الإذعان ولا يفكر في القيام بأي عمل ضد النظام خوفا من افتضاح فعلته وبيريا كان هـو المسئول عن أجهزة الأمن في الاتحاد السوفيتي. وكان يطبق نظام " الكونترول" هـذا علـى جميع المواطنين وبالذات المسئولين في الحكومة وفي الحزب!

ويبدو أن بيريا تمكن من جمع أدلة، مؤيدة بالصورة والصوت لجميع قادة الاتحـاد السـوفيتي تؤكد أخطائهم وانحرافهم، ولعل هذا هو السبب في أن حكام الاتحاد السوفيتي قرروا التخلص من بيريا فورا، وقبل أن يتخلص هو منهم الواحد بعد الآخر.

ويحكي خروشوف تفاصيل المؤامرة ضد بيريا فيقول:

- "لم يكن من الممكن استدعاء بيريا لاجتماع خاص، لأنه لابد أن يعلم مقدما أن الهدف من هذا الاجتماع هو قتله، أو اعتقاله. فعيونه في كل مكان. وجواسيسـه يلتقطـون كـل حركة، ويرصدون كل كلمة! وأخيرا اتفق على دعوة المكتب السياسي إلى الانعقـاد فـي جلسة عادية حضرها بيريا بصفته عضوا في هذا المكتب. وألتف أعضاء المكتب السياسي حول مائدة الاجتماع، بعد أن أغلق الباب عليهم، وفجأة قام الأعضاء واتجهـوا بسـرعة ناحية بيريا وأطبقوا على رقبته بأيديهم ولم يتركوها إلا بعد أن أسلم الروح!"
- وهكذا تخلصوا من بيريا....
- ولم يكن في استطاعتهم التخلص منه إلا بهذا الأسلوب....

ولم ينس خروشوف أن يطلق العنان للسانه، في هذه المناسبة! فقد نظر إلينا وقال:

- " أنتم أيضا يمكنكم اتباع نفس الوسيلة للتخلص من بيريال المصري!"

وكان خرشووف يقصد زميلنا زكريا محي الدين. وكان خروشوف يعرف أن زكريا يتـولى منصب وزير الداخلية، وكان هو المسئول عن القبض على الشيوعين المصريين، ومطاردتهم ورصد تحركاتهم، كما كان يقال عن زكريا محي الدين أنـه " أمريكـاني" ! وكانـت هـذه المعلومات لدى خروشوف عن زكريا، كافية جدا كي يكرهه، ويطالبنا بعقد اجتمـاع لمجلـس الثورة، نقوم خلاله ونطبق على رقبة زكريا ونتخلص منه، ويرتاح الشيوعيون المصريون!

نعود إلى عملية " الكونترول" فأقول أن مراكز القوى التي تخلصنا منها في مايو ١٩٧١ كانت حريصة كل الحرص على تطبيق هذا النظام بكل دقة. وكانت تلك المراكز تقول علنا أنهـا " ماسكة ذلة على كل واحد في مصر" ! وكان المقصود من هذا بالطبع هو ألا يرفع أحد رأسه ، وألا فضحوه، وشهروا به ! ولهذا السبب كان هدفي هو إلغاء هذا الأسلوب على الفور، بمجرد القضاء على مراكز القوى، وكان البعض يرى أن تشكل لجنة لسماع الشرائط، التي سـجلت فوقها مراكز القوى أسرار المواطنين، فربما عثرنا على وقائع تفيد الأمن القـومي، ولكننـي رفضت هذا الاقتراح وأمرت بحرق جميع الأشرطة، بكل ما فيها من أسرار وفضائح لا تعـد ولا تحصى!

وأعود إلى خروشوف فأقول أن الحق كان يأكل قلبه. والذي يكون هذا حاله فنصيحتي لكم ألا تضيعوا وقتكم معه. ويجب الابتعاد عنه، وتركه يصارع الحقد، ويصرعه الحقد!

وحكايات حقد خرشوف كثيرة جدا. ويكفي أن أحكي عن حكايته معي أنا شخصيا، والتي بدأت عندما رأست وفدا برلمانيا وذهبت به إلى موسكو في سنة ١٩٦٠ وجلست مـع خروشـوف أولا. حتى يمكننا الحصول على احتياجاتنا من السلاح السوفيتي، وأثناء المباحثـات فوجئنـا بخروشوف يتحدث عن الشيوعية وعن إنجازاتها وعن حتميتها وانتصارها ثم انتقل للحـديث عن الاشتراكية واستخدم أسلوب المعلم والداعية الكبير في شرح نظمها، وأهـدافها وأبعادهـا ورددت عليه ... وقلت له أن في مصر اشتراكية فثأر وغضب وقال:

- " أن اشتراكيتكم عبارة عن الفول المدمس أما اشتراكيتنا فهي الشيش كباب وشـوفوا بقى الفرق الكبير بين الشيش كباب والفول المدمس!"

ولم يكتف خروشوف بهذا، وإنما تطاول علينا، وعلى نظامنا كله.

ووصل الخبر في نفس اليوم إلى عبد الناصر في القاهرة، وكان عبد الناصر ينتظر منـي أن أرد على التطاول بأقسى منه. ولكنني لم أرد فمهما قلت فإنني لا أسـتطيع أن أتغلـب علـى سلاطة لسان خروشوف، ولم أسلم من بذاءة ألفاظه!

واكتفيت بالرد المهذب، والمحدد، والذي يضع الأمور في نصابها.

وانتهت المباحثات وتمت الزيارة وعدنا إلى القاهرة بعد نجاحنا في الحصول على ما طلبناه من الأسلحة، وذهبت إلى جمال عبد الناصر وعرضت عليه نتائج الزيارة، ففوجئت به يقول لي أنه كان ينتظر مني أن أرد بعنف على بذاءة خروشوف. فقلت له أنني رددت عليه بما أعتقد أنه يكفي وعلى كل حال فإن كل إنسان يتصرف بما تمليه عليه أخلاقه ولم يقتنع عبد الناصر....

وأعددنا ردا عنيفا نشر في صحيفة " الأهرام " وعلى الفور تلقفته إذاعة " أوروبا رقم ١" – وهي إذاعة موجهة ضد السوفييت – وأخذت تذيع الرد ليل نهار، بهدف الإساءة إلى خروشوف.

ومن هنا أعتقد أن خروشوف لم يكن يرتاح لي بل لا أغالي إذا قلت أنه كان يكرهني. فما أكثر المناسبات التي جمعتنا معه بعد ذلك، ودار فيها حديث بسيط. بعيدا عن الرسميات، اشترك فيه خروشوف وعبد الناصر وعبد الحكيم. ولم يحاول خروشوف أن ينسى ما كان بيننا ولم يتجاهل خلافنا القديم. وظل حتى آخر لقاء لي معه، كما هو عليه من تباعد، وغضب، وحقد! **أنور السادات**

www.anwarsadat.org